عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرها[1]

ـ ١ ـ

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ تُسمَّى أياماً .

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيه اليومُ بعد اليوم ، كما تَنبُتُ الورقةُ النَّاعمةُ في الزَّهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مِثلها .

أيامُ الصِّبَا المَرِحَةُ حتَّى في أحزانِها ، وهمومِها ؛ إذ كان مجيئُها من الزَّمن الذي خُصَّ بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ في مجَاري أحكامِها كالمسحورة ، فإن كانت مُفرِحَةً ؛ جاءت حاملةً فرَحَيْن . وإن كانت مُحْزِنَةً ؛ جاءت بنصف الحزن .

تلك الأيامُ ؛ التي تعملُ فيها الطَّبيعةُ لشباب الجسم بِقُوىً مختلفةٍ : منها الشَّمسُ ، والهواءُ ، والحركة ، ومنها الفرَحُ ، والنِّسيانُ ، والأحلام !

* * *

وشبَّتِ العذراءُ ، وأُفرِغَتْ في قالَب الأنوثةِ الشَّمسيِّ القمريِّ ، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهَر الغَضِّ ، وأودعتها الطَّبيعةُ سِرَّها النِّسائيَّ ؛ الذي يجعلُ العذراءَ فنَّ جمال ؛ لأنها فنُّ حياة ، وجعلتْها تِمثالاً للظَّرف . وما أعجبُ سِحرَ الطَّبيعةِ عندما تُجَمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال ؛ الَّذين ستلدُهم من بَعد ! وأسبغَتْ عليها معانيَ الرِّقة ، والحَنَان ، وجمال النَّفس . وما أكرمَ يدَ الطَّبيعةِ عندما تَمْهَرُ العذراءَ من هذه الصِّفات مَهرَها الإنسانيَّ !

وخُطِبَتِ العذراءُ لزوجها ، وعُقد له عليها في اليوم الثَّالث من شهر مارس في السَّاعة الخامسة بعد الظُّهر .

وماتت عذراءَ بعد ثلاثِ سنين ، وأُنزلَتْ إلى قبرها في اليوم الثَّالث من شهر مارس في السَّاعة الخامسة بعد الظُّهر !

---

(١) هي زوج ولده سامي . وانظر خبره ، وخبرها في « عود على بدء » من كتاب (حياة الرافعي) . (س) .

وكانت السَّنواتُ الثَّلاثُ عُمْرَ قلبٍ يُقطِّعُهُ المرض ، يتنظَّرون به العُرْس ، وينتظر بنفسه الرَّمْس !

يا عجائبَ القدَر ! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأنينٍ استمرَّ ثلاثَ سنوات ، فجاء آخرُه موزوناً بأوَّله في ضبطٍ ، ودقَّة ؟

أكانت تلك العذراء تحملُ سِرّاً عظيماً سيُغيِّر الدُّنيا ، فردت الدُّنيا عليها يومَ التهنئةِ والابتسامِ والزِّينة ، فإذا هو يومُ الوَلْوَلَةِ ، والدُّموع ، والكفن ؟

ـ ٢ ـ

واهاً لك أيُّها الزَّمن ! مَن الذي يفهمك وأنت مُدَّةُ أقدار ؟

واليومُ الواحدُ على الدُّنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهل الدُّنيا جميعاً ، وبهذا يعود لكلِّ مخلوقٍ سِرُّ يومِه ، كما أنَّ لكلِّ مخلوقٍ سرَّ روحِه ، وليس إليه لا هذا ، ولا هذا .

وفي اليوم الزَّمنيِّ الواحد أربعمئة مليون يومٍ إنسانيٍّ على الأرض[1] ! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الإنسان أربعاً وعشرين ساعةً ؛ يا للغباوة . . . !

وكلُّ إنسان لا يتعلَّق من الحياة إلا بالشُّعاع ؛ الَّذي يُضيء المكانَ المظلمَ في قلبه ، والشَّمسُ بما طَلَعَت عليه لا تستطيع أن تُنيرَ القلبَ الذي لا يضيئُه إلا وجهٌ محبوب .

وفي الحياة أشياءُ مكذوبةٌ تُكبِّر الدُّنيا ، وتُصغِّر النَّفس ، وفي الحياة أشياء حقيقيةٌ تَعْظم بالنَّفس ، وتَصغُر بالدُّنيا ؛ وذَهَبُ الأرض كلُّه فقرٌ مُدْقعٌ حين تكون المعاملةُ مع القلب .

أيَّتها الدُّنيا ! هذا تحقيرُك الإلهيُّ ؛ إذا أكبركِ الإنسان !

* * *

ويا عَجباً لأهل السُّوء المغترِّين بحياةٍ لا بدَّ أن تنتهي ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهي ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضةٌ ، وهل أَعجَبُ ، وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الإنسان

(١) هذا الرقم هو عدد البشرية أيام المؤلف ـ رحمه الله ـ .

إلى آخرها هو أوَّلَ فكرهِ في حقيقتها ؟

فعندما تَحينُ الدَّقائقُ المعدودةُ التي لا تَرقُمُها السَّاعةُ ، ولكن يرقمها صدرُ المُحْتَضَر . . . عندما يكون مُلْكُ الملوكِ جميعاً كالتُّراب ، لا يَشتري شيئاً ألبَتَّة . . .

. . . ماذا يكون أيُّها المجرمُ بعدما تَقْتَرِفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدَّليل ، وترى حولك الجندَ والقضاة ، وتقفُ أمامك الشَّريعةُ ، والعدل ؟

أعمالُنا في الحياة هي وحدَها الحياة ، لا أعمارُنا ، ولا حظوظُنا ، ولا قيمةَ للمال ، أو الجاه ، أو العافية ، أو هي معاً ؛ إذا سُلِبَ صاحبُها الأمنَ والقرار ! والآمِنُ في الدُّنيا من لم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجري وراءه . والسَّعيد في الآخرة مَن لم تكن له جريمةٌ تُطارِدُه هو في السَّموات .

كيف يمكن أن تخدعَ الآلةُ صاحبَها وفيها (العدَّادُ) : ما تتحرَّكُ من حركة إلا أشْعَرَتْه ، فَعَدَّها ؟! وكيف يمكن أن يكْذِبَ الإنسانُ ربَّه وفيه القلبُ : ما يعملُ مِنْ عملٍ إلا أشعره ، فعدَّه ؟!

ـ ٣ ـ

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيَّام .

أفرأيتَ أنتَ الغِنَى عندما يُدْبِرُ عن إنسانٍ ؛ ليتركَ له الحسرةَ ، والذِّكرى الأليمة ؟ أرأيتَ الحقائقَ الجميلةَ تذهبُ عن أهلها ، فلا تتركُ لهم إلا الأحلامَ بها ؟ ما أتعبَ الإنسانَ حين تتحوَّل الحياةُ عن جسمه إلى الإقامة في فكره !

وما هي الهمومُ والأمراض ؟ هي القبرُ يستبطئ صاحبَه أحياناً ، فينفضُ في بعض أيامه شيئاً من ترابه . . . ؟

رأيتُ العَروسَ قبل موتها بأيَّام ، فيالله من أسرار الموت ورهبتها ! فَرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشياءُ من معانيها ! وتخلَّى هذا الجسمُ عن مكانه للرُّوح تظهرُ لأهلها ، وتقفُ بينهم وقفةَ الوَدَاع !

وتحوَّل الزَّمنُ إلى فكرِ المريضة ؛ فلم تَعُدْ تعيشُ في نهارٍ ، وليلٍ ، بل في فكرٍ مُضيء ، أو فكرٍ مظلم !

يا إلهي ! ما هذا الجسمُ المتهدِّمُ المقْبِلُ على الآخرة ؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُه ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه ؟

لقد وثِقَتْ : أنَّه الموت ، فكان فكرُها الإلهيُّ هو الذي يتكلَّم ، وكان وجهُها كوجه العابد ، عليه طَيفُ الصَّلاةِ ، ونورُها . والرُّوحُ الإنسانيَّة متى عبَّرت لا تعبِّر إلا بالوجه .

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال ؛ إذ هي ابتسامةُ آلامٍ أيقنتْ أنَّها مُوشِكةٌ أن تنتهي ! ابتسامةُ روح لها مثلُ فَرح السَّجين قد رأى سجَّانَه واقفاً في يده السَّاعة يرقُبُ الدَّقيقةَ ، والثانية ؛ ليقول له : انطلِقْ !

* * *

ودخلتُ أعودُها ، فرأتْ كأنَّني آتٍ من الدُّنيا . . . ! وتَنسَّمتْ مني هواءَ الحياة ، كأنَّني حديقةٌ ، لا شخص !

ومَن غيرُ المريض الْمُدْنَف[1] ، يعرفُ أنَّ الدُّنيا كلمةٌ ليس لها معنىً أبداً إلا العافية ؟ مَن غيرُ المريضِ الْمُشْفِي على الموت ، يعيشُ بقلوب النَّاس الذين حوله ، لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشَّمسُ ، ولا الهواء ، ولا الطَّبيعةُ الجميلة ، ويقومَ مقامَ جميعِها للمريض أهلُه وأحبَّاؤُه !

وكان ذَوُوها من رهبة القدر الدَّاني كأنَّهم أسرى حَرْبٍ أُجلِسوا تحت جِدارٍ يريد أن ينقضَّ[2] ! وكانت قلوبُهم من فزعها تَنبِضُ نبضاً مثلَ ضَرَبات المَعاول .

وباقتراب الحبيبِ المحتَضَرِ من المجهول ، يُصبح مَنْ يُحبُّه في مجهولٍ آخر ، فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود في مثل حَيرةِ المجنون حين يُمسكُ بيده الظلَّ المتحرِّكَ ؛ ليمنعَه أن يذهب ! وتَعْروه في ساعةٍ واحدةٍ كآبةُ عمرٍ كاملٍ ، تُهيِّئُ له جلالَ الحسِّ ؛ الَّذي يشهد به جلالَ الموت !

* * *

---

(١) « المدنف » : دَنِف المريض : ثقل عليه المرض ، وأشفى على الموت ، فهو دنفٌ .

(٢) « ينقض » : يتهدَّم .

وحانت ساعةُ ما لا يُفْهم ، ساعةُ كلِّ شيءٍ ، وهي ساعةُ اللاشيء في العقل الإنسانيِّ ! فالتفتت العروسُ لأبيها تقول : « لا تحزَنْ يا أبي . . . ! » ولأمِّها تقول : « لا تحزني يا أمي . . . ! »

وتبسَّمت للدُّموع كأنَّما تحاولُ أن تكلِّمَها هي أيضاً ؛ تقول لها : « لا تبكي . . . ! » وأشفقت على أحيائها ؛ وهي تموت ، فاستجمعت روحَها ؛ ليبقَى وجهُها حيّاً من أجْلِهم بضعَ دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمةً ، فعيشوا مبتسمين ، سأتركُ تذكاري بينكم تذكارَ عروس . . ! » .

ثُمَّ ذكَرتِ الله ، وذكَّرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله » . وكرَّرتْها عشراً ! وتملأتْ روحُها بالكلمة التي فيها نورُ السَّموات والأرض ، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسمِ الأعظمِ الذي يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأ حتَّى وهيَ في أحزانها .

ثُمَّ استقبلت خالقَ الرَّحمةِ في الآباء والأمَّهات ! وفي مثل إشارةِ ودَاعٍ من مسافرٍ انبعث به القِطار ألقت إليهم تحيَّةً من ابتسامتها ، وأسلمت الرُّوح !

ـ ٤ ـ

يا لعَجائب القدر ! مشينا في جنازة العروس الَّتي تُزفُّ إلى قبرها طاهرةً كالطِّفلة ، ولم يبارِكْ لها أحدٌ ! فما جاوزنا الدَّار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائطٍ في الطريق إعلاناً قديماً بالخطِّ الكبير ؛ الذي يصيح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمُها : « مبروك . . . ! » .

واخترقنا المدينةَ ، وأنا أنظر وأتقصَّى ، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى ! واخترقنا المدينةَ كلَّها ، فلما انقطع العُمرانُ ، وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان : « مبروك . . . ! » .

* * *